المحاضرة الثامنة حول:

التصوف

تمهيد:

بقدر ما سيطرت روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني بقدر ما كثر إنتاج العلماء في هذا الميدان ورغم تقدم الزمن فقد ظل كتاب النجم الثاقب وأعمال بن محمد السنوسي من أهم المصادر للتأليف في علم التصوف وفروعه، إلا أن حركة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني قد عرفت تحولات وتطورات أدت بالمتصوفين والزهاد في تلك الفترة إلى الخروج عن مبادئ التصوف الحقيقي والإنحراف عن مبادئ الدين؛ مما خلق جوا من الاختلاف والصراع بين علماء الدين والتصوف في تلك المرحلة.

01/- مفاهيم عامة حول التصوف:

1-1- المفهوم اللغوي:

يقول ابن تيمية أن"النسبة في الصوفية إلى الصوف لأنه غالب لباس الزهاد".

و يرى ابن خلدون أنه" إن قيل الاشتقاق فإنها مشتقة من الصوف لأنهم في الغالب مختصون بلبسه"، وقالت طائفة أخرى إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها و نقاء آثارها، و قال بشر بن الحارث"الصوفي من صفا قلبه

لله". وفي هذا الصدد يقول أبو الحسن الندوي في كتابه"ربانية لا رهبانية" ليتهم من قالوا سموها تزكية.

وعلى الرغم من كثرة هذه الاختلافات في الاشتقاق إلا أنها تتمحور حول فكرة و معنى واحد مشترك و هي الاهتمام بالجانب الروحي و الذاتي أكثر من الجانب المادي و الدنياوي.

1-2- المفهوم الاصطلاحي:

ويعرفه ابن خلدون " بأنه علم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وهي طريق الحق والهداية و أصلها العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها و الزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، واختص هؤلاء باسم الصوفية و المتصوفة".لأن أغلب المتصوفة هم من رجال الدين والأكثر تعمق وفهم لأمور الدين والدنيا ومن أهم تعريفات المتصوفين لمفهوم التصوف ما قاله الجنيد " التصوف تصفية القلب من موافقة البرية ومارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازل الصفات الربانية والتعلق بعلوم الحقيقة وإتباع الرسول في الحقيقة".

أي أن أهم ما يميز جوهر تعريف التصوف هو صفاء القلب وتبصره بأمور الدين وبراءة الإنسان في تصرفاته.

ويقال هو الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتخلق بأخلاق الصحابة والتابعين وقد بين لنا التاريخ أمثلة كثيرة من المتصوفين فمنهم من كان يأبى على نفسه من النعيم.

ولكثرة تعريفات التصوف فقد لخصه بعضهم بأنه:" السير في طريق الزهد والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها. أي الترفع عن مفاتن ومغريات الحياة والأخذ بأنواع من العبادة والأوراد وقيام الليل لتقوية النفس والروح سعيا إلى تحقيق الكمال النفسي للوصول إلى معرفة الذات الإلهية؛ أي الوصول إلى معرفة الحقيقة.

02/- نشأة التصوف:

إن تاريخ ظهور التصوف يعود إلى منتصف القرن الرابع الهجري وسرعان ما انتشر في مختلف البلدان الإسلامية، وفيما يخص نشأته يذكر أن معظم كبار المتصوفون ومؤسسي الطرق الصوفية في تاريخ الإسلام قد ظهروا قبل القرن 10ه/16م، حيث أن حركة التصوف بدأت في شكل زهد منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بل وأنه عليه الصلاة والسلام كان من أوائل

الزهاد هو والصحابة والتابعين، وهذا الزهد الذي ظهر مع ظهور الإسلام أمر بديهي، لأن الشريعة تحص المؤمن على العمل للآخرة والتوكل على الله وطلب مغفرته.

وكان من أوائل الزهاد أبو الدرداء، أبو ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وهو من الصحابة، ولم يكن لفظ الصوفي معروفا أو متداولا بل كان هناك لفظ الزهاد أو العباد، و قال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا "أن أول ما ظهرت الصوفية في البصرة وأول من بنى ديورة للصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد هو من أصحاب الحسن، ولم يكن للتصوف في بدايات نشأته جماعة معروفة بعينها لها نظام خاص بها ورئيس معين، وما ميز المراحل الأولى من ظهور الزهد والتصوف هو المبالغة في حب الله تعالى.

03/-تطور التصوف:

التصوف الإسلامي كان منشأه إسلاميا محض من القرآن والسنة، لكنه سرعان ما تأثر في تطويره وانتشاره بعوامل خارجية من ذلك اتساع رقعة الدولة الإسلامية الناتج عن الفتوحات أدى إلى اتصال مراكز الفكر فيها بالشعوب الأخرى مسيحية ويهودية وآرامية بإتباع الديانات الهندية والفارسية بآسيا مما ساهم في اتساع حركة التصوف.

وللقد مرت حركة التصوف في تطورها بعدة مراحل هي:

المرحلة الأولى:

حيث كان أصحاب هذه المرحلة يتميزون بالمبالغة في العبادة والانعزال من الناس مع الالتزام بآداب الشريعة أين غلب عليهم الخوف من الله و البكاء المستمر حتى كان يصل الأمر ببعضهم الصيام لمدة ثلاثة أيام متتالية، فكان جل عملهم من الكتاب والسنة النبوية.

المرحلة الثانية:

تميزت هذه المرحلة بظهور مصطلحات جديدة غامضة و طقوس غريبة تميل إلى الإنحراف وخارجة عن الشريعة الإسلامية، وقد ظهر في كلام المتصوفة أيضا " القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان". أي توريث مناصب القيادة للمتصوفين وهو من أخطر الإنحرافات التي عرفتها حركة التصوف والإبتعاد عن معطيات الدين الحق.

المرحلة الثالثة:

وتعتبر هذه المرحلة أخطر مراحل التصوف حيث تسربت إليها الفلسفة اليونانية فأبعدتها عن مراحل التصوف السابقة بل وجعلتها خارجة عن نطاق الإسلام حتى قيل أن المصادر الأساسية للتصوف هي الأفلاطونية الحديثة.

وظهور التصوف في المغرب العربي كان مصدره المشرق، وترجع بوادره الأولى إلى القرون الوسطى وقد فتح الباب واسعا بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر لانتشار ظاهرة الأولياء الصالحين في الإسلام السني خاصة وأن الفقهاء للمذهب المالكي الذي كان منتشرا بدول المغرب العربي الذين تميزوا بالتسامح والتغاضي على هذا الصعيد، وعند هذا التقاطع التاريخي خرج التصوف من كونه مجرد تجربة ليصبح فيما بعد ظاهرة اجتماعية من خلال الطرق والزوايا. واتساع رقعة إنتشاره في المغرب العربي الإسلامي.

04/- مؤسسات التصوف:

4-1- الزاوية.

إذ تعد الزوايا هي المؤسسات الرسمية لحركة التصوف والتي أخذت في شمال إفريقيا من المعاني ما يطلق على بناء ديني شبيه بمؤسسة تعليمية تحتوي في الغالب على قبة، ليكون لها شكل يميزها عن باقي الهيكل الدينية، وبها أيضا غرفة للصلاة وضريح لولي صالح وغرف لتحفيظ القرآن واستقبال الزائرين، وتعليم العلوم العربية والإسلامية، وهي عبارة عن مجمعات من البيوت المختلفة الأشكال والأحجام.

4-2- الطريقة:

الطريقة لغة تطلق على السيرة والمذهب والحال، والطريقة أيضا هي أسلوب عملي ويطلق عليها أيضا: المذهب والرعاية والسلوك لإرشاد عن طريق اقتفاء أثر طريقة تفكير وشعور وعمل وتؤذي من خلال تعاقب مراحل المقامات، في ارتباط متكامل مع التجارب النفسية المسماة حالات أو أحوال إلى معايشة تجربة الحقيقة المقدسة.

وقد اختلفت الطرقية كما اختلفت المذاهب فيما بعد وكان اختلافها في الفروع وليس الأصول فلكل منها أوراد وأذكار وأوقات للصلاة. أي الإختلاف في أسلوب الممارسة وليس في مبادئ الصوفية. ثم تتابعت البدع وتأصلت في القرن السابع أو ما بعده، أصبح من شروط السالك في أية طريقة صوفية كالطريقة القادرية والرفاعية والشاذلية وغيرها، التزام الطريقة أو أحد خلفائه، ولم يكن هذا الشرط موجودا من قبل ثم أصبح شرطا أساسيا في الطرق المتأخرة. ومن تقاليد الطرق المعروفة وراثة المشيخة الإبن بعد أبيه وخاصة أنهم يعتقدون أو يدعون أنهم ينتسبون إلى البيت، وقد بلغ فساد الطرق في هذه الفترة مداه واستصعب علاجه، وهكذا تكون البدع صغارا ثم تكبر.

وكانت هذه هي بداية التصوف العملي المنحرف الذي إبتعد بشكل واضح عن أصول الدين ومبادئ الزهد والمتصوفين

05/- التصوف و انتشاره في العهد العثماني:

إن التصوف الذي انتشر في الجزائر منذ ما قبل مجيء العثمانيين قد ازدهر في هذه المرحلة.فحركة التصوف في العهد العثماني قد انتشرت على نطاق واسع وقد شملت مختلف القطاعات، ولم تكن مقصورة على طبقة المتنورين والقارئين ونخبة المجتمع، بل تعدته إلى جذب العامة من الناس. وقد كان لانتشار الطرق الصوفية والمرابطية خلال العهد العثماني في الجائر أثره الواضح على حياة العامة من الجزائريين، حتى كثرت المباني المتخصصة لهم وخاصة خلال القرن15م. وترجع عوامل وأسباب انتشاره بالجزائر إلى أسباب عدة منها ما هو فكري ما هو سياسي وما هو اجتماعي، ونلخص هذه الأسباب والعوامل فيمايلي:

-وجود أعلام صوفية عملوا على نشر التصوف وطرقه بكامل المغرب الإسلامي وولد احترام الخاصة والعامة لهم

-سقوط الأندلس وبذلك هجرة كثير من صوفية الأندلس إلى الأراضي الجزائرية ونشر أفكارهم في الوسط الجزائري.

- انتشار البذخ والترف عند فئات معينة نتيجة الثراء الفاحش، وتراجع القيم الدينية والأخلاقية، وقد حارب الصوفية هذا الانحراف وقاموا بكل السبل والطرق لهذه الإختلالات؛ مما أدى إلى انتشار مذهبهم.

06/- العلاقة بين المتصوفة و السلطة العثمانية:

لم تكن العلاقة بين السلطة الحاكمة والجزائريين في بداية أمرها متوترة بل كانت العلاقة ودية وخصوصا مع رجال الزوايا والطرق إلى غاية القرن 18 فقد تغيرت هذه العلاقة، وذلك راجع لعدة أسباب منها:

-إرهاق الأهالي بالضرائب حيث انكمشت موارد البحر التجارية مع مطلع القرن 17م حتى أصبحت لا تلبي حاجيات السكان. وتخوفا من سياسة التحرر والبحث عن ضمان للتنكر في أكثر من قابلية وذلك عن طريق الرباط الديني وتمكنه.

ومع هذا فإن العلاقة في كثير من الأحيان كانت طبيعية بين العثمانيين والطرق الصوفية وهذا راجع لاستفادة كل طرف من الآخر، فالمرابطون استطاعوا المحافظة على امتيازاتهم المادية ومكانتهم المعنوية في المجتمع، أما الطرف الآخر فقد وظف رجال الدين والمرابطين لخدمة استقراره في السلطة.

قائمة المراجع المعتمدة في المحاضرة:

01/- أمين بن أحمد،(2008)، الصوفية في حضرموت نشأتها ، أصولها ، آثارها (عرض ونقد)، الطبعة 01، دار التوحيد للنشر، المملكة العربية السعودية.

02/- دالي يوسف عثمان،2020/2019، التاريخ الثقافي للجزائر في العهد العثماني، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس- الجزائر.

03/- أحمد صبحى منصور، تصدير الطبعة الأولى لكتاب (مقدمة ابن خلدون : دراسة تحليلية) عام 1998

04/- أبو نصر السراج الطوسي،2004،اللمع في تاريخ التصوف، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة الرقمية.

05/- أبو القاسم سعدالله،(1998)، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري، الطبعة 01، الجزء الثاني، دار العرب الاسلامي، بيروت، لبنان.